أصل التسمية لكنيسة القيامة

زكريا محمد*

الاسم الأكثر شيوعاً لكنيسة القيامة في المصادر العربية القديمة هو: «كنيسة القُمامة»، أو من دون أل التعريف 'كنيسة قُمامة'. بل يمكن القول أن هذا الاسم هو، في الواقع، الاسم العربي الأصيل والأصلي لكنيسة القيامة. وهذا ما يقوله الإدريسي (٤٩٣-٥٥٩ هـ، ١١٠٠-١١٦٤ م) عند وصفه للحرم القدسي: «ومن جهة الشمال باب يسمى باب عمود الغراب. وإذا دخل الداخل من باب المحراب، وهو الباب الغربي كما قلناه، يسير نحو المشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى، المعروفة بكنيسة القيامة. ويسميها المسلمون قمامة. وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها».[١] وهكذا، فاسم الكنيسة عند المسلمين 'قمامة' لا 'قيامة'. ويؤكد التسمية ذاتها ياقوت الحموي(٥٧٤-٦٢٦ هـ، ١١٧٨-١٢٢٩ م) ويضيف لما ذكره الإدريسي: «قُمَامَةُ، بالضم: أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس، وصفُها لا ينضبط حسناً، وكثرة مال، وتنميق عمارة. وهي في وسط البلد، والسور يحيط بها. ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أنّ اسمها قمامة».[٢]

وكلما عاد المرء إلى الوراء في الزمن اختفى اسم 'كنيسة القيامة' بالتدريج، وأطل وحده اسم 'كنيسة القمامة' أو 'كنيسة قمامة' باعتباره الاسم الأساسي للكنيسة. فالجاحظ الذي عاش بين القرنين الثاني والثالث الهجري (١٥٩-٢٥٥ هـ، ٧٧٥-٨٦٩ م) مثلا لا يتحدث عن القيامة بل عن القمامة أو قمامة: «نار الاحتيال: وما زالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القمامة ببيت المقدس بمصابيحها، وأن زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نار، في بعض ليالي أعيادهم».[٣] ويضيف في مكان آخر من الكتاب ذاته: «افتتان بعض النصارى بمصابيح كنيسة قمامة: وقد تعرف ما في عجايز النصارى وأغمارهم، من الافتنان بمصابيح كنيسة قمامة».[٤]

يؤكد كل هذا أن الاسم العربي الأصلي لكنيسة القيامة، هو: 'كنيسة القمامة' أو 'كنيسة قمامة'- مع العلم أن الصيغة الثانية أشيع- مهما بدا ذلك غريبا. وثمة فرضيتان في تفسير هذا الاسم:

- الأولى، أن الاسم تحريف عربي استهزائي لاسم كنيسة القيامة، يقصد إلى الإساءة إلى المسيحيين، وإهانة مقدساتهم. وخذ مثلاً على ذلك ما جاء في أحد المواقع في الإنترنت: «ونلاحظ أنه زيادة في إهانة المسيحيين كان أولياء الأمر يدعون كنيسة القيامة بوصف محتقر زيادة منهم في الإهانة والاستصغار، إذ يدعونها كنيسة 'القمامة'... بدل 'القيامة'».[٥] وهذه الفرضية متواجدة ومنتشرة، لكن لا أحد من الباحثين يدافع عنها رسمياً. وهي فرضية نشأت، كما هو واضح، على خلفية الصراعات الدينية، وازدهرت في المناخ الطائفي الذي ساد المنطقة في العقود الأخيرة، ويسمم أجواءها. لهذا، فسنقفز عنها لأنها لا تصمد في وجه أي جدال حقيقي. فليس في المصادر ما يوحي بوجود نغمة استهزاء أو استخفاف تجاه الاسم إطلاقاً. ولو كان في جذر التسمية استهزاء أو استخفاف، لانكشف هذا في النصوص بفعل الصراعات والجدالات الدينية الإسلامية المسيحية الطويلة والمتشابكة.
- الثانية: وهي الفرضية السائدة، وتربط التسمية بالصراع الديني المسيحي- اليهودي، لا الإسلامي.

---

١ الإدريسي. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. نسخة إلكترونية من الوراق www.alwaraq.net.

٢ ياقوت الحموي. معجم البلدان نسخة إلكترونية منه على: www.alwaraq.net

٣ الجاحظ. الحيوان. نسخة إلكترونية منه على: www.alwaraq.net

٤ المصدر ذاته.

٥ http://www.ladeenyon.org/forum/viewtopic 501278=p&35697=t&11=php?f

* باحث في التاريخ والتراث.

وهي تنطلق من التقليد المسيحي، الذي يقول إن اليهود دفنوا خشبة صليب المسيح بعد صلبه، وغطوها بالقمامة، الكناسة، إلى أن اكتشف مكانها، واستخرجت في عهد هيلانة، لذا، فقد جاء اسم 'كنيسة القمامة' من هذه الواقعة الدينية، واقعة دفن الصليب تحت القمامة. يقول ابن خلدون مكرراً التقليد المسيحي المعروف عن الصليب ودفنه: «وجاءت [هيلانة] إلى مكان الصليب فوقفت عليه وترحمت. وسألت عن الخشبة التي صلب عليها بزعمهم، فأخبرت بما فعل اليهود فيها، وأنهم دفنوها وجعلوا مكانها مطرحاً للقمامة والنجاسة والجيف والقاذورات. فاستعظمت ذلك واستخرجت تلك الخشبة التي صُلب عليها بزعمهم... وأمرت ببناء كنيسة هائلة بمكان الخشبة تزعم أنها قبره، وهي التي تسمى لهذا العهد قمامة. وخرّبت مسجد بني إسرائيل، وأمرت بأن تلقى القاذورات والكناسات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، إلى أن أزال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، عند فتح بيت المقدس كما نذكره هنالك».[٦] يضيف القلقشندي: «وتوجهت أمُّه هيلانة[٧] إلى القدس واستخرجت خشبة الصلبوت بزعمهم من تحت القمامات، وبنت مكانها كنيسة قمامة.»[٨] أمّا ابن كثير فيزيد: «وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة، وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس، التي يقال لها القمامة، باعتبار ما كان عندها، ويسمونها القيامة، يعنون التي يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس، فكنس عنها القمامة بردائه، وطهرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها، ولكن أمامها حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى».[٩]

بناءً عليه، فهناك حرب تدنيس يهودية- مسيحية، دخل إليها المسلمون متأخرين، هي التي أوجدت اسم كنيسة القمامة.

أما ياقوت الحموي، فلا يذكر الصليب الخشبي، لكنه يذكر المزبلة. فالكنيسة بنيت فوق مزبلة فأخذت اسمها، كنيسة قمامة، من هذه الواقعة: «والصحيح أن اسمها قمامة، لأنها كانت مزبلة أهل البلد، وكان في ظاهر المدينة يقطع بها أيدي المفسدين ويصلب بها اللصوص، فلما صُلب المسيح في هذا الموضع عظْموه كما ترى، وهذا مذكور في الإنجيل».[١٠] وتنويعة الحموي تدلل على أن القصة المتداولة عن أصل الاسم تبلورت تدريجياً، حتى وصلت إلينا بصورتها الحالية، المأخوذة من التقليد المسيحي.

والملاحظة المهمة أن المصادر العربية الأقدم، لا تتطرق لواقعة الزبالة والقاذورات. فالجاحظ، الذي يلتذ بالحكايات الدينية والميثولوجية، ويورد هذه الحكايات مستمتعاً، رغم أنه في أغلب الأحيان لا يصدقها، لم يذكر هذه الواقعة. وهذا ما يسمح لنا بالافتراض أنه جرى ربط الاسم (قمامة) بقصة القاذورات لاحقا، من أجل تفسير الاسم (كنيسة القمامة) الذي صار معناه مبهماً وغامضاً.

بناءً عليه، نعتقد أن سوء فهم قد حصل، وأدى إلى ربط اسم 'كنيسة قامة' بالزبالة والكناسة، عن طريق قصة الصليب المدفون. فهذه القصة هي التي حولت عدم الفهم إلى سوء فهم. فحين غمض الاسم على الناس في وقت متأخر، جرى ربطه بهذه القصة من أجل تفسيره، فانتهينا إلى أن صار هذا الاسم يعني 'كنيسة الزبالة'. من أجل هذا لم يكن الجاحظ، ابن القرنين الثاني والثالث الهجريين، بحاجة إلى تفسير هذا الاسم. ففي ذلك الوقت لم يكن الاسم مرتبطاً بالزبالة، ولو كان مرتبطاً بها فعلاً لاضطر إلى تفسير سبب ارتباط هذا المكان المقدس بالدنس والقاذورات، كما فعل اللاحقون. أي أنّ الاسم صار بحاجة إلى تفسير فقط عندما التبس معناه وصار غامضاً. وهذا لم يحصل إلاّ بعد عصر الجاحظ.

والحق أن ربط هذا الاسم بقصة الصليب المدفون غير مقبولة من أساسها، فهي تفترض أن العرب-المسلمين أخذوا هذا الاسم من مصادر مسيحية، وليس هناك ما يشير إلى وجود هذا الاسم في التقليد المسيحي. عليه، فالمرء مرغم على أن يفترض أننا أمام اسم عربي صميم. ومن غير الممكن، بالطبع، أن يكون المسيحيون قد سموا كنيستهم باسم 'كنيسة القمامة'، أي باسم عربي ابتُدع بعد وقت طويل من حادثة دفن الصليب المفترضة.

انطلاقاً من هذا كله، نعتقد أن هذا الاسم لم يكن له، في الأصل، علاقة بالزبالة والقاذورات، بل علاقته بأمر آخر. ما هو هذا الأمر؟

تقتضي الإجابة استفتاء معنالفعل قَمَمَ، جذر الاسم 'قمامة'، وبهذا نستطيع تقديم فرض مناسب للمعنى الأصلي لهذا الاسم. يعطي هذا الجذر معنيين رئيسيين: العلو والجمع، ومن المعنى الثاني جاءت كلمة قمامة،

---

٦ ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net.

٧ أي أم الامبراطور قسطنطين.

٨ القلقشندي. صبح الأعشى. نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net

٩ ابن كثير. البداية والنهاية. نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net

١٠ معجم البلدان. ياقوت الحموي. مصدر سبق ذكره

بمعنى زبالة وكناسة، فالزبالة قمامة لأنها تُقمّ، أي تجمع. أما في ما يخص اسم الكنيسة، فيجب أن نأخذ بعين الاعتبار صيغتيه 'قماة' و'القمامة':

- فإذا كان الأصل بأل التعريف، فإن الاسم يعني في أغلب الظن: الكنيسة الجامعة، كنيسة الجماعة، الكنيسة الكبرى، أو الكنيسة العظمى، كما ورد عند الإدريسي في المقتبس الذي أوردناه: «الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة، ويسميها المسلمون قمامة». يدعم ذلك أن القمامة تعني: جماعة القوم، أو جماعة الناس، في اللغة: «القُمامة: جماعة القَوْم».[١١] يضيف الرازي: «والقمةُ والقمامة أيضاً: جماعة الناس».[١٢] بناءً عليه، فالاسم ربما يعني بشكل محدد: الكنيسة الجامعة، أي الكنيسة الرئيسة والكبرى، أو كنيسة الجماعة المسيحية ككل. أي أنه يعني ما يعنيه الاسم: 'المسجد الجامع' بالنسبة إلى المسلمين. فالجامع صفة للمسجد، والمسجد الأكبر في كل مدينة كان يسمى المسجد الجامع، أي المسجد الذي يجمع ويقمّ.

- أما إذا كان الاسم من دون أل التعريف، أي قمامة، وهو ما نميل إليه، فإن هذا يرغمنا على الأخذ بعين الاعتبار أن عدداً لا بأس به من الشخصيات المشهورة، في الجاهلية والإسلام، سميت باسم 'قُمامة'. لدينا مثلا: الشاعر وقاص بن قُمامةَ، والمحدِّث أبو قُمامةَ جَبَلَة بن محمد، وقمامة بن زيد، الذي كان على علاقة بعبد الملك بن مروان. ومن أجداد الشاعر زيد بن عدي جدٌ يُدعى قمامة أيضاً، وهو قُمامة بن عمرو بن زيد بن ثعلبة بن عَديٍّ الشاعر. ولا يمكن للمرء أن يعتقد أن أسماء هؤلاء كانت تعني: زباله وكناسة. فالناس لا تسمي أبناءها بالكناسة وزبالة. بناءً عليه، فلا بد أن لهذا الاسم الشائع معنىً إيجابياً، وأغلب الظن أنّه اسم يرتبط بالعلو والرفعة، خصوصاً وأنّ جذر 'قمم' يعطي هذا المعنى. يؤيد هذا أن الجذر الشقيق 'قمقم' يعطي معنى السيادة، فالقَمْقام بالعربية هو السيد: «القَمْقام والقماقِم من الرجال: السيد الكثير الخير الواسع الفضل».[١٣] يضيف السيوطي في المزهر: «القَمقَام: الزعِيم».[١٤] كما أن القمقم هو السيد: «القَمقم السيد من الرجال».[١٥] بالتالي، فالاسم 'قمامه' ربما عنى السيد، وفي هذه الحالة، يكون اسم كنيسة قمامة قد عنى: كنيسة السيد، أو السيد العالي، أي السيد المسيح، أو شيئاً من هذا القبيل. وإذا صح هذا، يمكن للمرء أن يفترض أن الاسم كان في الأصل ابتداعاً عربياً مسيحياً. ولعله، بالتالي، يكون منحدراً من نهايات الجاهلية. وهذا الفرض قد يفسِّر، بصورة ما، غموضه عند المصادر العربية-الإسلامية المتأخرة. فهو اشتقاق من المعنى الأقل شيوعاً، وليس الأقل أصالة، للجذر قَمَم.

- بقي أن نشير إلى أمر طريف في هذا السياق، وهو ما جاء في القاموس المحيط، فقمامة عنده امرأة: «نصرانية بنت دَيْراً بالقدس، فَسُمِّيَ باسمها»[١٦]! وهكذا، فقد صارت 'هيلانة' هي 'قمامة' ذاتها. ورغم عدم أهمية هذا التفسير، فإنه يشكل دليلاً على أمرين اثنين:

- الأول، أن الاسم كان بالفعل قد صار لغزاً في المراحل المتأخرة؛

- والثاني، أن قصة الزبالة لم تكن القصة الوحيدة الموجودة لتفسير الاسم العربي الأصيل لكنيسة المسيحيين العظمى (كنيسة قمامة).

---

١١ لسان العرب. جذر قمم.

١٢ الرازي. مختار الصحاح. جذر قمم.

١٣ لسان العرب. جذر قمم

١٤ السيوطي. المزهر. نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net

١٥ الأزهري. تهذيب اللغة. جذر قمم

١٦ الفيروز آبادي. القاموس المحيط. جذر قمم